عَبِيـــــر

مِنْ مَواعِــــظ الـمُتَهجِّـــــدين

«ليســت الـنـائحة الـثـكلى كالمستعـــارة»

«لا يـعـرف الشوق إلاّ من يـكـابـدهُ

ولا الصــبـــابــة إلاّ من يعانيهـــا»

ولأن الثكلى ليست كالنائحة المستعارة ، وكما يقول القائل :

مَنْ لم يبت والحب حشو فؤاده
لم يدر كيف تفتت الأكباد

فلقد تركنا المجال لهم حتى يصلك عبير وأريج من كلام القانتين المتهجدين الركع السجود فانظر مقالهم ، وإليك شذى من كلامهم :

- قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : « لولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا » .

وكان رحمه الله يقول : لأهل الطاعة فى ليلهم ألذّ من أهل اللهو بلهوهم .

ودخل عليه ابن أبى الحوارى فوجده باكياً فقال له ابن أبى الحوارى : ما يبكيك ، فقال أبو سليمان : « ويحك يا أحمد ، كيف لا أبكى وقد بلغنى أنه إذا جنّ الليل وهدأت العيون ، وخلا كل خليل بخليله ، واستنارت قلوب العارفين ، وتلذذت بذكر ربهم ، وارتفعت هممهم إلى ذى العرش وافترش أهل المحبة أقدامهم بين يدى مليكهم فى مناجاته ، وردّدوا كلامه بأصوات محزونة جرت دموعهم على خدودهم ، وتقطرت فى محاريبهم خوفاً واشتياقاً ، فأشرف عليهم الجليل جل جلاله ، فنظر إليهم فأمدّهم محابة وسرورًا ، فقال لهم : أحبابى والعارفين بى ، اشتغلوا بى ، وألقوا عن قلوبكم ذكر غيرى ، أبشروا فإن لكم عندى الكرامة والقربى يوم تلقونى ، فينادى الله جبريل : يا جبريل بعينى من تلذّذ بكلامى واستراح إلىّ ، وأناخ بفنائى ، وإنى لمطلع عليهم فى خلواتهم ، أسمع أنينهم وبكاءهم ، وأرى تقلبهم واجتهادهم ، فناد فيهم يا جبريل : ما هذا البكاء الذى أسمع ، وما هذا التضرع الذى أرى منكم ؟ هل سمعتم أو أخبركم عنى أحد أن حبيبًا يعذب أحباءه ؟ أوما علمتم أنى كريم فكيف لا أرضى ؟ أيشبه كرمى أن أردّ قومًا قصدونى ؟ ، أم كيف أذل قومًا تعززوا بى ؟ أم كيف أحجب غداً أقواماً آثرونى على جميع خلقى وعلى أنفسهم وتنعموا

بذكرى ؟ أم كيف يشبه رحمتى ؟ أو كيف يمكن أن أبيت أقواماً تملقوا إلىّ وقوفاً على أقدامهم[1] وعند البيات أخزوهم ، أم كيف يجمل بى أن أعذّب قوماً إذا جنّهم الليل تملقونى وانقطعوا إلىّ واستراحوا إلى ذكرى ، وخافوا عذابى ، وطلبوا القربة عندى ، فبى حلفت لأرفعنّ الوحشة عن قلوبهم ، ولأكوننّ أنيسهم إلى أن يلقونى ، فإذا قدموا علىّ يوم القيامة فإن أول هديتى إليهم أن أكشف لهم عن وجهى حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم ، ثمّ لهم عندى مالا يعلمه غيرى » ، يا أحمد إن فاتنى ما ذكرت لك فيحق لى أن أبكى دماً بعد الدموع . قال أحمد : فأخذت معه فى البكاء ، وكنت أرى أثر ذلك عليه حتى الممات ، وكنت إذا سألته عن شىء من الحديث يقول : ما كفاك الذى سمعت .

ثم بكى ابن الحوارى وقال : وآحرماناه ، وآشؤم خطيئتاه ، مضى القوم وبقينا بعد حين قد أمضيناه ، فالناس ظفروا بما طلبوا ولا ندرى ما ينزل بنا ، فواخطراه وجعل يبكى .

● وقال عمر بن ذرّ : « لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم ، ونظروا إلى أهل الغفلة قد سكنوا إلى فُرُشهم ورجعوا إلى ملاذهم من النوم ، قاموا إلى الله فرحين مستبشرين بما قد وهب لهم من حُسن عادة السهر وطول التهجد ، فاستقبلوا الليل بأبدانهم وباشروا الأرض بصفاح وجوههم ، فانقضى عنهم الليل وما انقضت لذتهم من التلاوة ، ولا ملّت أبدانهم من طول العبادة ، فأصبح الفريقان وقد ولّى عنهم الليل بربح وغبن ، أصبح هؤلاء قد ملّوا النوم والراحة ، وأصبح هؤلاء متطلعين إلى مجىء الليل للعادة ، شتان ما بين الفريقين ، فاعملوا لأنفسكم رحمكم الله فى هذا الليل وسواده ، فإن المغبون من غُبن خير النهار والليل ، والمحروم من حُرِم خيرهما ، إنما جعلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم ، ووبالاً على الآخرين للغفلة عن أنفسهم فأحيُوا أنفسكم بذكر الله ، فإنما تحيى

(١) حلية الأولياء جـ ١٠ ص ١٦ ، ١٧ .

القلوب بذكر الله ، كم من قائم لله فى هذا الليل قد اغتبط بقيامه فى ظلمة حفرته ، وكم من نائم فى هذا الليل قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله للعابدين غدًا ، فاغتنموا ممر الساعات والأيام رحمكم الله »[1]

وقال الربيع بن عبد الرحمن : « إن لله عبادًا أخمصوا له البطون عن مطاعم الحرام ، وغضوا له الجفون عن مناظر الآثام ، وأهملوا له العيون لما اختلط عليهم الظلام ، رجاء أن ينير لهم ذلك ظلمة قبورهم إذا تضمنتهم الأرض بين أطباقها ، فهم فى الدنيا مكتئبون ، وإلى الآخرة متطلعون ، نفذت أبصار قلوبهم بالغيب إلى المكتوب ، فرأت فيه ما رجت من عظيم ثواب الله فازدادوا بذلك لله جداً واجتهاداً عند معاينة أبصار قلوبهم ما انطوت عليه آمالهم ، فهم الذين لا راحة لهم فى الدنيا ، وهم الذين تقر أعينهم غداً بطلعة ملك الموت عليهم » ثم بكى حتى بلّ لحيته بالدموع »[2]

قطع الليل رجال ورجالٌ وصلوه
رقدوا فيه أناس وأناس وصلوه
لا يميلون إلى النوم ولا يستعذبوه
فكأن النوم شىء لم يكونوا يعرفوه
لبسوا ثوبًا من الخدمة حتى خلعوه
مع جلباب من الحزن فما إن نزعوه

● قيل للحسن البصْرى : ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوهاً ؟ قال : « لأنهم خَلَوْا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره » .

● وقال سفيان : « شر حالات المؤمن أن يكون نائماً ، وخير حالات الفاجر أن يكون نائماً ، لأن المؤمن إذا كان مستيقظاً فهو متحل بطاعة الله فهو خير له من

---

(١) مختصر قيام الليل ص ١٧ .

(٢) مختصر قيام الليل ص ٢٩ .

نومه ، والفاجر إذا كان مستيقظاً فهو متحل بمعاصى الله فنومه خير من يقظته .

وقال سفيان رحمه الله عَمَّنْ نام الليل ومَنْ قامه : تراه كسلان ضجراً قد بات جيفة على فراشه ، وأصبح نهاره يحتطب على نفسه لعباً ولهواً ، وترى صاحب الليل منكسر الطرف ، فرح القلب .

مواعظ لذى النون المصرى تدمى القلوب والأجفان :

قال رحمه الله : « إن لله عباداً ملأ قلوبهم من صفاء محض محبته ، وهيّج أرواحهم بالشوق إلى رؤيته ، فسبحان من شوّق إليه أنفسهم ، وأدنى منه هممهم ، وَصَفَتْ له صدورهم ، سبحان موفقهم ومؤنس وحشتهم وطبيب أسقامهم ، إلهى لك تواضعت أبدانهم منك إلى الزيادة ، وانبسطت أيديهم ما طيبت به عيشهم ، وأدمت به نعيمهم ، فأذقتهم من حلاوة الفهم عنك ، ففتحت لهم أبواب سماواتك ، وأتحت لهم الجواز فى ملكوتك ، بك أنست محبة المحبين ، وعليك معول وشوق المشتاقين ، وإليك حنّت قلوب العارفين ، وبك أنست قلوب الصادقين ، وعليك عكفت رهبة الخائفين ، وبك استجارت أفئدة المقصرين ، قد بسطت الراحة من فتورهم ، وقلّ طمع الغفلة فيهم ، لا يسكنون إلى محادثة الفكرة فيما لا يعنيهم ، ولا يفتروا عن التعب والسهر يناجونه بألسنتهم ، ويتضرعون إليه بمسكنتهم ، يسألونه العفو عن زلاّتهم ، والصفح عمّا وقع الخطأ به فى أعمالهم ، فهم الذين أذابت قلوبهم الأحزان ، وخدموه خدمة الأبرار الذين تدفقت قلوبهم ببره ، وعاملوه بخالص من سره كنت لهم سيدى مؤيداً ولعقولهم مؤدباً ، ذهبت الآلام عن أبدانهم لما أذاقهم من حلاوة مناجاته ، ولما أفادهم من ظرائف الفوائد من عنده .

فيا حسنهم والليل قد أقبل بحنادس ظلمته ، وهدأت عنهم أصوات خليقته ، وقدموا إلى سيدهم الذين له يأملون ، فلو رأيت أيها البطّال أحدهم ، وقد قام إلى صلاته وقراءته ، فلما وقف فى محرابه واستفتح كلام سيده ، خطر

على قلبه أن ذلك المقام هو المقام الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين ، فانخلع قلبه ، وذهل عقله ، فقلوبهم فى ملكوت السموات معلقة ، وهمومهم بالفكر دائمة ، فما ظنك بقوم خيار أبرار وقد خرجوا من رق الغفلة ، واستراحوا من وثائق الفترة ، وأنسوا بيقين المعرفة ، وسكنوا إلى روح الجهاد والمراقبة ، بلغنا الله وإياكم هذه الدرجة »[(١)] .

● وقال رحمه الله عن المتهجدين : « عبدوه سرًا فأوصل إلى قلوبهم طرائف البر ، عملوا ببعض ما علموا ، فلما وقفوا فى الظلام بين يديه ، هَدَى قلوبهم إلى مالا يعلمون فحسرت ألبابهم لمعرفة الوقوف بين يديه »[(٢)]

يا مؤنس الأبرار فى خلواتهم يا خير من حطّت به النُّزّالُ

وانظر إليه كيف يستمطر الدمع حين يصف المتهجدين فيقول :

« قد هدّ أجسامهم الوعيد ، وغيّرَ ألوانهم السهر الشديد ، يتلذذون بكلام الرحمن ، ينوحون به على أنفسهم نوح الحمام ، فرحين فى خلواتهم ، لا تفتر لهم جارحة فى الخلوات ، ولا تستريح لهم قدم تحت سطور الظلمات ، فيالها نفوس طاشت بهممها ، والمسارعة إلى محبتها لما أملت من اتصال النظر إلى ربها .

رجال أطاعوا الله فى السهر والجهر
فما باشروا اللذات حينًا من الدهر
يراعون نجم الليل ما يرقدونه
فباتوا بإدمان التهجد والصبر
فداخل هموم القوم للخلق وحشة
فصاح بهم أنس الجليل إلى الذكر[(٣)]

---

(١) الحلية جـ ٩ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
(٢) الحلية جـ ٩ ص ٣٥٥ .
(٣) الحلية جـ ٩ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ .

فأجسادهم فى الأرض هوناً مقيمة
وأرواحهم تسرى إلى معدن الفخر
فهذا نعيم القوم إن كنت تبتغى
وتعقل عن مولاك آداب ذوى القدر

انظر رحمك الله إلى طبيب القلوب ذى النون وهو يصف نفسًا عليّة فيقول : « نفس على الجوع صبرت ، وفى سربال الظلام خطرت . نفس تدرّعت رهبانية القلق ، ورعت الدجا إلى واضح الفلق ، فما ظنك بنفس فى وادى الحنادس سلكت ، وهجرت اللذات فملكت ، وإلى الآخرة نظرت ، وإلى العيناء أبصرت وعن الذنوب أقصرت ، وعلى الذر من القوت اقتصرت ، ولجيوش الهوى قهرت ، وفى ظلم الدياجى سهرت ، فهى بقناع الشوق مختمرة ، وإلى عزيزها فى ظلم الدجا مشتمرة ، قد نبذت المعايش . هذه نفس خدوم ، عملت ليوم القدوم ، وكل ذلك بتوفيق الحى القيوم »[1] .

● – ويقول رحمه الله :

« إن لله عبادًا أسكنهم دار السلام ، فأخمصوا البطون عن مطاعم الحرام وأغمضوا الجفون عن مناظر الآثام ، وقيدوا الجوارح عن فضول الكلام ، وطووا الفرش وقاموا فى جوف الظلام ، وطلبوا الحور الحسان من الحى الذى لا ينام ، فلم يزالوا فى نهارهم صيامًا ، وفى ليلهم قيامًا حتى أتاهم ملك الموت عليه السلام »[2] .

« إن لله عبادًا علموا الطريق إليه ، والوقوف غدًا بين يديه ، فثارت القلوب إلى محجوب الغيوب ، فجرعوا مرارة مذاق خوف ، واستعملوا الظلام فى رضى

---

(١) الحلية جـ ٩ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
(٢) الحلية جـ ٩ ص ٣٦٠ .

صاحب السموات ، فسقاهم من أعين العلم والزيادات . وغوّصهم فى بحار السلامات ، فهم غدًا يسلمون من هؤلاء الزلازل والسطوات ويسكنون الغرفات[1].

● **أخى :**

كن كالطير الوحدانى يأكل من رؤوس الأشجار ويشرب من ماء القراح ، إذا جنّه الليل أوى إلى كهف من الكهوف استئناسًا بمولاه ، واستيحاشًا ممّن عصاه وكن مع قوم ـ إن عجزت أن تكون منهم ـ وصفهم أبو الفيض ذو النون فقال : « هم يا أخى قوم قد ذوّب الحزن أكبادهم ، وأنحل الخوف أجسامهم ، وغيّر السهر ألوانهم ، وأقلق خوف البعث قلوبهم ، قد سكنت أسرارهم إليه ، وتذللت قلوبهم عليه ، فنفوسهم عن الطاعات لا تسلو . وقلوبهم عن ذكره لا تخلو ، وأسرارهم فى الملكوت تعلو ، الخشوع يخشع لهم إذا سكنوا . والدموع تخبر عن خفى حرقتهم إذا كمدوا ، قد نَسَوْا فرج الشهوات بحلاوة المناجاة ، فليس للغفلة عليهم مدخل ، ولا للهوَ فيهم مطمع ، قد حجب التوفيق بينهم وبين الآفات ، وحالت العصمة بينهم وبين اللذات ، فهم على بابه يبكون وإليه يبكون ومنه يبكون فطوبى للعارفين ما أغنى عيشهم وما ألذ شربهم وما أجلّ حبيبهم »[2] .

رحمك الله أبا الفيض صاحب العبارات الوثيقة ، والإشارات الدقيقة فهذا الكلام لا يصدر إلا عن سيد حطّت همة قلبه فى عاريات التقى حتى أناخت فى رياض النعيم ، وسرحت روحه فى العلا ، وشرب من الحكمة وطارت همته فى ملكوت السموات فعادت بظرائف الفوائد ، ولكم عزفت على أوتار القلوب

---

(١) الحلية جـ ٩ ص ٣٧٠ .

(٢) الحلية جـ ٩ ص ٣٨٠ .

وجعلت القلوب تحن إلى مولاها وتشتاق للسهر ، فطيّب الله قبرك وسقاك من أنهار الجنة .

• قال الأوزاعي رحمه الله : «كان السلف إذا صدع الفجر أو قبله بشيء كأنما على رؤوسهم الطير مقبلين على أنفسهم حتى لو أنّ حميماً لأحدهم قد غاب عنه حيناً ثم قدم ما التفت إليه » .

• وكان أحد الصالحين فى بعض المغازى يحيى الليل حيث كان على ظهر دابته ، أو على الأرض وكان إذا نظر إلى الفجر يلمع ضوءه قال : « يا إخوتاه عند بلوغ الماء يفرح الواردون بتعجيل الرواح » .

• وقال شيخ من بنى تيم الله لفتيان الحى ونسّاكه : « يا إخوتاه قوموا قيام قوم قد يئسوا من المعاودة لمجلسهم خوفاً من خطفات الموكّل بالنفوس فيبكى ويُبَكِّى ».

• وعن عاصم بن أبي النجود قال : أدركت أقوامًا كانوا يتخذون هذا الليل جملاً .

• أما علىّ بن بكار فيقول : منذ أربعين سنة ما أحزننى إلا طلوع الفجر .

• وقال السرى : رأيت الفوائد تَرِدُ فى ظلم الليل .

• عن طلحة بن مصرف قال : بلغنى أن العبد إذا قام من الليل للتهجد ناداه ملكان : طُوباك سلكت منهاج العابدين قبلك » .

• وقال محمد بن قيس : « بلغنى أن العبد إذا قام من الليل للصلاة تناثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ، وهبطت عليه الملائكة لتستمع إلى قراءته ، واستمع له عمّار داره ، وسكان الهواء ، فإذا فرغ من صلاته ، وجلس للدعاء أحاطت به الملائكة تؤمن على دعائه فإن هو اضطجع بعد ذلك نودى : نم قرير العين مسروراً .. نم خير نائم على خير عمل .

● وقال وهب بن منبه : « لن يبرح المتهجدون من عرصة القيامة حتى يُؤْتَى بنجائب من اللؤلؤ قد نفخ فيها الروح ، فيقال لهم : انطلقوا إلى منازلكم من الجنة ركباناً ، فيركبونها فتطير بهم متعالية ، والناس ينظرون إليهم ، يقول بعضهم لبعض : من هؤلاء الذين قد منّ الله عليهم مِنْ بيننا ، فلا يزالون كذلك حتى ينتهى بهم إلى مساكنهم من الجنة .

● وعن إسحاق بن سويد : «كانوا يَرَوْن السياحة : صيام النهار وقيام الليل .

● وقال يزيد الرقاشي لحبيب العجمى : ما أعلم شيئاً أقرّ لعيون العابدين فى الدنيا من التهجد فى ظلمة الليل ، وما أعلم شيئاً من نعيم الجنة وسرورها ألذّ عند العابدين ولا أقرّ لعيونهم من النظر إلى ذى الكبرياء العظيم إذا رُفعت تلك الحجب وتجلّى لهم الكريم . فصاح حبيب عند ذلك ، وخرّ مغشياً عليه .

بكى الباكون للرحمن ليلاً وباتوا دمعهم لا يسأمونا
بقاع الأرض من شوق إليهم تحن متى عليها يسجدونا

● قال كرز بن وبرة : بلغنى أن كعبًا قال : إن الملائكة ينظرون من السماء إلى الذين يتهجدون بالليل كما تنظرون أنتم إلى نجوم السماء(١) .

● وفى بعض الآثار يقول الله عز وجل فى كل ليلة : يا جبريل أقم فلاناً ، وأنم فلاناً .

● قيل لبعضهم كيف الليل عليك ؟ قال : هو ساعة أنا فيها بين حالين ، أفرح بظلمته إذا جاء ، وأَغْتَمُّ بفجره إذا طلع ، ما تَمّ فرحى به قط ولا اشتفيت منه قط .

● قال بعض الصالحين : ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلاّ ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة .

---

(١) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٠٥ .

● وقال بعضهم : قيام الليل والتملق للحبيب والمناجاة للقريب فى الدنيا ، ليس من الدنيا ، هو من الجنة ، أُظْهِر لأهل الله تعالى فى الدنيا لا يعرفه إلا هم ، ولا يجده سواهم رَوْحًا لقلوبهم .

● « بأبى وأمى قوم يراعون الظلام بالنهار ، كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحنّ الطير إلى أوكارها بعد الغروب ، فإذا جنّهم الليل ، واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ، ونصبت الأسِرّة ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا لله أقدامهم ، وافترشوا له وجوههم ، وناجوه بكلامه ، وتملقوا له بإنعامه ، فَبَيْن صارخ وباك ، ومتأوه وشاكى ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، بعينى مولاهم ما يتحملون لأجله ، وبسمعه ما يشتكون من حبه » .

● نعم يا أخى هم قوم أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرقى .

● كان عمير بن حبيب يقول لأهله : « يا أهلاه الدُّلجة الدُّلْجة .. إنه مَنْ يُسبَق إلى الماء يظمأ .. يا أهلاه الدلجة الدلجة .. إنه مَنْ يُسبَق إلى الظلّ يضحى ..

لله درك ما أجمل هذا الكلام يا عمير .

● قال المسيح عليه السلام للحواريين وقد رأى النور على وجوههم : يا أبناء الآخرة ما تنعم المتنعمون إلا بفضل نعيمكم .

● وكان الفضيل رحمه الله يقول : « أفرح بالليل لمناجاة ربى وأكره النهار للقاء الخلق ..

● قالت أم غزوان له : أَمَا لفراشك عليك حق .. أما لنفسك عليك حق ؟ قال : يا أماه إنما أطلب راحتها .. أبادر طى صحيفتى[1] .

---

(١) مختصر قيام الليل ص ٢٧ .

● يا أخي : اصرف أربعة أشياء إلى أربعة مواضع وخذ الجنة : النوم إلى القبر ، والراحة إلى الصراط ، والفخر إلى الميزان ، والشهوات إلى الجنة[1] .

● قال إبراهيم الهروى :

« من أراد أن لا يُحجب دعاؤه من السماء فليتعاهد من نفسه خمسة أشياء :

أولا : أن يكون أكلة غُلبة ، لا يأكل إلاّ مالا بُدّ منه . ولباسه غلبة ، لا يلبس إلا مالابد منه ، ونومه غلبة لا ينام إلا مالا بدّ منه ، وكلامه غلبة لا يتكلم إلاّ مالا بد منه ، والخامس : أن يكون متضرعًا حافظاً لإرادته دائماً حافظاً لأعضائه كلها »[2] .

● ووصف عابد جماعة من المتهجدين فقال :

« قد يئسوا من الدنيا ويئست الدنيا منهم ، قد لصقوا بمقام الأرض ، وتلفّقوا بالخرق ، فلو رأيتهم لرأيت رجالاً إذا جنّهم الليل بسكاكين السهر إنّ القوم أعطوا المجهود من أنفسهم ، فلما دبرت المفاصل من الركوع ، وقرحت الجباه من السجود ، وتغيرت الألوان من السهر ، ضجّوا إلى الله بالإستغاثة ، فهم أحلاف اجتهاد ، لا يسكنون إلى غير الرحمن ، فعليك بمنابذة نفسك إذا دعتك إلى الفترة فإن لها مكراً وخداعاً »[3] .

● نعم يا أخي .. لو رأيت المتهجدين لرأيت قوماً ذبلاً شفاههم ، خمصًا بطونهم ، حزينة قلوبهم ، ناحلة أجسامهم ، باكية أعينهم ، ذبحهم الليل

---

(١) الحلية جـ ١٠ ص ٥٠ .
(٢) الحلية جـ ١٠ ص ٤٣ .
(٣) الحلية جـ ٩ ص ٣٨١ .

بسكاكين السهر، وفصل الأعضاء منهم بخناجر التعب، خمص لطول السرى، شعث لفقد الكرى، قد وصلوا الكلال بالكلال للنقلة والارتحال[1].

• ومما جاء فى وصف المتهجد

توجع بأمراض وخوف مطالب — وإشفاق محزون وحزن كئيب
ولوعة مشتاق وزفرة واله — وسقطة مسقام بغير طبيب
وفطنة جوّال، وبطأة غائص — ليأخذ من طيب الصفا بنصيب
ألمّ بقلب حيّرته طوارق — من الشوق حتى ذلّ ذل غريب
يكاتم لى وجدًا، ويخفى حمية — شوق فاستكنت فى قرار لبيب
يقول إذا ما شفّه الشوق وآجدى — بك العيش يا أنس المحب يطيب
فهذا لعمرى عبد صدق مهذب — صفى فاصطفى فالرب منه قريب

• ويقول آخر عن حاله وتهجده

أراعى النجوم ولا علم لى — بعدّ النجوم بحيث الظلامْ
وكيف ينام فتىً لا ينام — إذا نام عنه عيون الحمامْ
أسير يسير إليه هواه — فيضحى الأسير قتيل الغرامْ
فلم يبق منه سوى اسمه — يقال له «عابد» والسلامْ
بفرط النحول وحب القليل — وحزن مذيب بطول السّقامْ[2]

---

(١) الحلية جـ ٩ ص ٣٤٦.
(٢) الحلية جـ ١٠ ص ٣١٨.

وأنشد سمنون البصرى :

أحنّ بأطراف النهار صبابة ... وبالليل يدعونى الهوى فأجيبُ
وأيامنا تفنى وشوقى زائد ... كأنّ زمان الشوق ليس يغيب[1]

● قال يحيى بن معاذ : « دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتفكر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين[2] .

وسئل رحمه الله : ما العبادة ؟ قال : حرفة حانوتها الخلوة وربحها الجنة[3] .

● قال أحمد الموصلى لأحمد الميمونى ـ من ولد ميمون بن مهران ـ :

« يا أحمد إن تعملْ فقد عمل العاملون قبلك ، وإن تعبد فقد تعبّد المتعبدون قبلك ، أولئك الذين قرّبوا الآخرة ، وباعدوا الدنيا ، أولئك الذين وَلِىَ الله إقامتهم على الطريق ، فلم يأخذوا يميناً ولا شمالاً ، فلو سمعت نغمة من نغماتهم المختمرة فى صدورهم ، المتغرغرة فى حلوقهم لغيّبت عليك عيْشك ، ولطردت عنك البطالة أيام حياتك »[4] .

● والمتهجدون يا أخى كما قال عبد العزيز بن عمير : « ترى نور الجلال عليهم ، وأثر الخدمة بين أعينهم . إن الرجل لينقطع إلى بعض ملوك أهل الدنيا فيَرَى أثره عليه ، فكيف بمنْ ينقطع إلى الله عز وجل كيف لا يرى أثره عليه ! ! »[5] .

---

(١) الحلية جـ ١٠ ص ٣١١ .
(٢) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٩٢ .
(٣) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٩٧ .
(٤) صفة الصفوة جـ ٤ ص ١٨٩ .
(٥) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٣٤ .

• قال بشر بن الحارث : يا أخى بادر بادر ، فإن ساعات الليل والنهار تذهب بالأعمار[1] .

• وقال القاسم بن عثمان الجوعى : « أصل الدين الورع ، وأفضل العبادة مكابدة الليل ، وأفضل طرق الجنة سلامة الصدر »[2]

• قيل لرجل من عباد بيت المقدس وكان يبيت ليله يصلى فإذا طلع الفجر مدّ بصوت له : « عند الصباح يغبط القوم السرى ـ : « ألا ترفق بنفسك » ؟

فقال : « إنما هى نفسى أبادرها أن تخرج .

هجرت الورى فى حُبّ من جاد بالنعم | وعِفْت الكَرَى شوقاً إليه فلم أَنَمْ
فلما رأيت الشوق والحب بائحاً | كشفت قناعى ثم قلت : نعمْ نعمْ
فإن قيل مجنون فقد جنّنى الجوى | وإن قيل مِسقامٌ فما لى من سقمّ
فقد لامنى الواشون فيك جهالة | فقلت لطرفى : أفصِح العُذْر فاحتشم
فعاتبهم طرفى بغير تكلم | وأخبرهم أن الجوى يورث السقم[3]

فاركض يا أخى فى ميدان السباق ، وشمّرْ تشمير الحذّاق .

• قال يوسف بن أسباط : « عجبت كيف تنام عين مع المخافة ! ! أو يغفل قلب مع اليقين بالمحاسبة ! ! . مَنْ عرف وجوب حق الله عز وجل على عباده لم تستحل عيناه أبداً إلا بإعطاء المجهود من نفسه ، خلق الله تعالى القلوب مساكن الذكر فصارت مساكن للشهوات . والشهوات مفسدة للقلوب وتلف للأموال ،

---

(١) صفة الصفوة جـ٢ ص٣٢٦ .
(٢) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٣٦ .
(٣) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٤٩ .

وإخلاق للوجوه ، ولا يمحو الشهوات من القلوب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق »[١] .

وكتب إلى حذيفة المرعشى : « احسر عن رأسك قناع الغافلين ، وانتبه من رقدة الموتى ، وشمر للسباق غداً فإن الدنيا ميدان المتسابقين » .

● وقال عابد بجبال بيت المقدس : « ذهبت الآلام عن أبدان الخُدّامْ ، وولهت بالطاعة عن الشراب والطعام ، وألفت أبدانهم طول القيام بين يدى الملك العلاّم[٢] .

● أسلم رجل كان عابداً للصنم ، فقال لمن أسلم على أيديهم حين رآهم بعد أن جنّ عليهم الليل وصلوا العشاء أخذوا مضاجعهم ـ قال : هذا الإله الذى دللتمونى عليه إذا جنّ عليه الليل ينامْ ؟ فقالوا : هو عظيم قيوم لا ينام . قال : بئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام[٣] .

ومشتاق وليس له قرار نفور ليس يملِكُه العِذارُ
ومؤنس قلبه ليل طويل يلذّ به ويوحشه النهار
قضى وطراً به فأفاد علماً فنهمته التعبد والفرار
ألا صبرًا على دنياك صبرًا فكل أمورها فيها اعتبار[٤]

(١) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٣٦١ ـ ٣٦٣ .
(٢) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٣٥١ .
(٣) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٣٦١ .
(٤) صفة الصفوة جـ ٤ ص٣٧٣ .

وصف المتهجدين وليلهم

بقلم ابن القيم

إذا أردت أن تعرف قدر سلفنا وقدر شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية فهذا كلامهم .. فمن نظر فيه وفى سيرهم عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال . كانوا والله كهيئة الروحانيين ، تجد الرجل منهم معلّق القلب بما هنالك ، ليست له فى الدنيا راحة ، ولكلماتهم مذاق خاص لأنهم أرادوا بها عز الآخرة ورضا الرحمن .. فاسمع رحمك الله مواعظهم التى تدمى القلوب قبل الأجفان استمع إلى حالهم بقلم يشع منه النور ويفيض روحانية وهو يصف المتهجدين . يقول طبيب القلوب وحادى الأرواح إلى بلاد الأفراح :

« أمّا السابقون المقربون فنستغفر الله الذى لا إله إلا هو ، أوّلاً من وصف حالهم وعدم الاتصاف به ، بل ما شممنا له رائحة ، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها ، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم . فاسمع الآن وصف القوم واحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل فإن وجدت من نفسك حركة وهمّة إلى التشبه بهم فاحمد الله وادخل فالطريق واضح والباب مفتوح :

إذا أعجبتك خصال امرىء فكُنْهُ تكنْ مثل ما يعجبكْ
فليس على الجود والمكرما ت إذا جئتها حاجب يحجبكْ

فنبأ القوم عجيب ، وأمرهم خفى إلا على من له مشاركة مع القوم ، فإنه يطلع على ما يريه إياه القدر المشترك . وجملة أمرهم أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله ، وغمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته ، فسرت المحبة فى أجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب .

فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلٰهه ومولاه ،

واجتمع همه عليه ، متذكراً صفاته العلى وأسمائه الحسنى ، مشاهداً له فى أسمائه ، قد تجلت على قلبه أنوارها ، فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته ، فبات جسمه على فراشه يتجافى عن مضجعه ، وقلبه قد آوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه ، وأسجده بين يديه خاضعاً خاشعاً ذليلاً منكسراً من كل جهة من جهاته ، فيالها سجدة ما أشرفها من سجدة ، لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء . وقيل لبعض العارفين : أيسجد القلب بين يدى ربه ؟ قال : أى والله ، بسجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة ، فشتان بين قلب يبيت عند ربه قد قطع فى سفره إليه بيداء الأكوان ، وخرق حجب الطبيعة ، ولم يقف عند رسم ، ولا سكن إلى علم ، حتى دخل على ربه فى داره ، فشاهد عز سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله . فإذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهداً لقلبه أَنْسَتْهُ ذكر غيره ، وشغلته عن حب من سواه ، وبالجملة فيبقى قلب العبد ـ الذى هذا شأنه ـ عرشاً للمثل الأعلى ـ أى عرشاً لمعرفة محبوبه ومحبته . وناهيك بقلب هذا شأنه فياله من قلب مِنْ ربه ما أدناه ! !

فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان وسجدت تحت العرش وأبدانهم فى فرشهم كما قال أبو الدرداء : « إذا نام العبد المؤمن عرج بروحه حتى تسجد تحت العرش ، فإن كان طاهرا أذن لها فى السجود ، وإنْ كان جنبًا لم يؤذن لها بالسجود » وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر الذى لأجله أمر النبى ﷺ الجنب إذا أراد النوم أنْ يتوضأ .

فإذا استيقظ هذا القلب من منامه ، صعد إلى الله بهمه وحبه وأشواقه ، مشتاقًا إليه ، طالبًا له محتاجًا إليه عاكفًا عليه ، فحاله كحال المحب الذى غاب عنه محبوبه الذى لا غنى له عنه ، ولا بد له منه ، وضرورته إليه أعظم من ضرورته إلى النّفس والطعام والشراب . فإذا نام غاب عنه ، فإذا استيقظ عاد إلى الحنين إليه وإلى الشوق الشديد والحب المقلق ، فحبيبه آخر خطراته عند منامه

وأولها عند استيقاظه كما قال بعض المحبين لمحبوبه

وآخر شيء أنت فى كل هجعة   وأول شيء أنت عند هبوبى

فأُفٍّ لقلب لا يصلح لهذا ولا يصدق به ، لقد صُرف عنه خير الدنيا والآخرة .

● فإذا استيقظ أحدهم ، وقد بدر إلى قلبه هذا الشأن ، فأول ما يجرى على لسانه ذكر محبوبه والتوجه إليه ، واستعطافه والتملق بين يديه ، والاستعانة به أن لا يخلى بينه وبين نفسه وألا يكله إليها فيكله إلى ضعة وعجز وذنب وخطيئة ، بل يكلأه كلاءة الوليد الذى لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

فأول ما يبدأ به « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » متدبراً لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بأن أحياه بعد نومه الذى هو أخو الموت وأعاده إلى حاله سويّاً سليماً محفوظاً مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات والمهلكات التى هو عرض وهدف لسهامها كلها ، التى تقصده بالهلاك أو الأذى ، والتى من بعضها شياطين الإنس والجن . فمن الذى كلأه وحرسه وقد غاب عنه حسه وعلمه وسمعه وبصره ، فإذا تصور العبد ذلك فقال « الحمد لله » كان حمده أبلغ وأكمل من حمد الغافل عن ذلك ، ثم تفكر فى أن الذى أعاده بعد هذه الإماتة قادرًا على أن يعيده بعد موتته الكبرى ثم يقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » ثم يدعو ويتضرع ثم يقوم إلى الوضوء بقلب حاضر مستصحب لما فيه ، ثم يصلى ما كتب الله له صلاة محب ناصح لمحبوبه ، متذلل منكسر بين يديه ، لا صلاة مُدِلّ بها عليه ، يرى من أعظم نعم محبوبه عليه أن أقامه وأنام غيره ، واستزاره وطرد غيره ، وأهَّلَهُ وحرم غيره ، فهو يزداد بذلك محبة إلى محبته ، ويرى أن قرة عينه وحياة قلبه وجنة روحه ونعيمه ولذته وسروره فى تلك الصلاة فهو يتمنى طول ليله ، ويهتم بطلوع الفجر كما يتمنى

المحب الفائز بوصل محبوبه ذلك فهو كما قيل :

يود أنّ ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

فهو يتملق فيها مولاه تملق المحب محبوبه العزيز الرحيم ، ويناجيه بكلامه معطياً لكل آية حظها من العبودية، فتجذب قلبه وروحه إليه آيات المحبة والوداد ، والآيات التى فيها الأسماء والصفات ، والآيات التى تعرّف بها إلى عباده بآلائه وإنعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، وتطيب له السير آيات الرجاء والرحمة وسعة البر والمغفرة فتكون له بمنزلة الحادى الذى يطيب له السير ويهونه ، وتقلقه آيات الخوف والعدل والانتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه العادلين به غيره ، المائلين إلى سواه ، فيجمعه عليه ويمنعه أن يشرد قلبه عنه ، فتأمل هذه الثلاثة وتفقه فيها ، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وبالجملة فيشاهد المتكلم سبحانه وقد تجلّى فى كلامه ، ويعطى كل آية حظها من عبودية قلبه الخاصة الزائدة على مجرد تلاوتها والتصديق بأنها كلام الله ، بل الزائدة على نفس فهمها ومعرفة المراد منها . ثم شأن آخر لو فطن له العبد لعلم أنه كان قبل يلعب ، كما قيل:

وكنت أرى أن قد تناهى به الهوى إلى غاية ما بعدها لى مذهب
فلما تلاقينا وعاينت حسنها تيقنت أنى إنما كنت ألعب

فوآأسفاه وواحسرتاه كيف ينقضى الزمان وينفد العمر والقلب محجوب ما شم لهذا رائحة ، وخرج من الدنيا كما دخل إليها وما ذاق أطيب ما فيها ، بل عاش فيها عيش البهائم ، وانتقل منها انتقال المفاليس ، فكانت حياته عجزاً وموته كمداً ومعاده حسرة وأسفاً ، فإذا صلى ما كتب الله له جلس مطرقاً بين يدى ربه هيبة له وإجلالاً ، واستغفره استغفار من قد تيقن أنه هالك إن لم يغفر له ويرحمه ، فإذا قضى من الاستغفار وطراً وكان عليه بعد ليل اضطجع على شقه

الأيمن مجمًا لنفسه مريحًا لها مقويًا لها على أداء وظيفة الفرض فيستقبله نشيطاً بجده وهمته كأنه لم يزل نائماً طول ليلته لم يعمل شيئاً »[1] أ. هـ. انتهى كلام طبيب القلوب وريحانة المتهجدين ابن القيم رحمه الله.

● روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ـ

« وأيم الله ـ يمينًا أستثنى فيها بمشيئة الله ـ لأروضن نفسى رياضة تهش معها إلى القُرص[2] إذا قدرت عليه مطعومًا، وتقنع بالملح مأدومًا[3]، ولأدعنّ مُقْلتى كعين ماء نضب معينها، مستفرَغة دموعُها. أتمتلى السائمة من رعيها[4] فتبرك، وتشبع الربيضة[5] من عشبها فتربض؟ ويأكل علىٌّ من زاده فيهجع؟! قرت إذاً عينه[6] إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة[7] والسائمة المرعية!! »

طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها[8]، وهجرت فى الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، فى معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعها جنوبهم، وهمهمت[9] بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم

---

(١) طريق الهجرتين من ص ٢٠٥ ـ ٢١١ طبعة السلفية.

(٢) أى تنبسط إلى الرغيف وتفرح به من شدة ما حرمها.

(٣) أى مأدومًا به الطعام.

(٤) الرعى : ما ترعاه الماشية.

(٥) الربيضة : الغنم مع رعاتها إذا كانت فى مرابضها، والربوض للغنم كالبروك للإبل، يقال ربضت الغنم : طوت قوائمها ولصقت بالأرض.

(٦) دعاء على نفسه ببرود العين أى جمودها من فقد الحياة.

(٧) الهاملة : المرسلة، والهمل من الغنم ترعى نهاراً بلا راع.

(٨) البؤس : الضر، وعركه بالجنب : الصبر عليه كأنه شوك فيسحقه بجنبه، ويقال : فلان يعرك الأذى إذا كان صباراً.

(٩) الهمهمة : الصوت يردد فى الصدر، وأراد منه الأعم، انقشع الغمام : انجلى.

﴿أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ [(1)] أ . هـ .

- وروى عنه أنه كتب إلى الأشتر النخعى فقال له :

« اعطِ لله من بدنك فى ليلك ونهارك . ووفِّ ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ » [(2)] .

قال يحيى بن معاذ :

كل محبوب سوى الله سرف ... وهموم وغموم وأسف
كل محبوب فمنه لى خلف ... ما خلا الرحمن ما منه خلف
إن للحب دلالات إذا ... ظهرت من صاحب الحب عُرِف
صاحب الحب حزين قلبه ... دائم الغصة مغموم دنف
همه فى الله لا فى غيره ... ذاهب العقل وبالله كلف
أشعث الرأس خميص بطنه ... أصفر الوجه وفى الطرف ذرف
دائم التذكار من حُب الذى ... حبه غاية غايات الشرف
فإذا أمعن فى الحب له ... وعلاه الشوق مما قد كشف
باشر المحراب يشكو بثه ... وأمام الله مولاه وقف
قائم قدامه منتصبًا ... لهجًا يتلو بآيات الصحف
راكعًا طورًا وطورًا ساجدًا ... باكيًا والدمع فى الأرض يكف
أورد القلب على حب الذى ... فيه حب الله حقًا فعرف
ثم جالت كفه فى شجر ... ينبت الحب فسمى واقتطف
إن ذا الحب لمن يعنى به ... لا بدار ذات لهو وطرف

---

(1) نهج البلاغة ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(2) نهج البلاغة ص ٣٤٤ .

وقال آخر :

تشاغل قوم بدنياهم ... وقوم تخلوا لمولاهم
فألزمهم باب مرضاته ... وعن سائر الخلق أغناهم
فما يعرفون سوى حبه ... وطاعته طول محياهم
يصفون بالليل أقدامهم ... وعين المهيمن ترعاهم
فطوراً يناجونه سجداً ... ويبكون طوراً خطاياهم
إذا فكروا فى الذى أسلفوا ... أذاب القلوب وأبكاهم
وإن يسكن الخوف لاذوا به ... وباحوا إليه بشكواهم
وأصبحوا صياماً على جهدهم ... تبارك مَنْ هو قوّاهم
هم القوم أعطوا مليك الملو ... ك صدق القلوب فوالاهم
هم المجتبون بنياتهم ... أرادوا رضاه فأعطاهم
وأسكنهم فى فراديسه ... وأعلا المنازل بوّاهم
فنالوا المراد وفازوا به ... فطوبى لهم ثم طوباهم

وقال آخر :

قليل العزاء كثير الندم ... طويل النحيب على ما اجترم
جرى دمعه فبكى جفنه ... فصار البكاء بدمع ودم
يخاف البيات بهجم الممات ... وفقد الحياة بضر السقم
ويخفى محبة رب العلى ... فتظهر أنفاسه ما اكتتم
وأسبل من طرفه عبرة ... على الصحن من خده فانسجم
وبات محارب محرابه ... ولما تزل قدم عن قدم
فلما تفتتت أحشاؤه ... من الشوق رقا عليه الألم
وكم ليلة رام فيها المنام ... فصاح به حبه لا تنم
وناح على جسد ناحل ... أطال النحول به فانهدم
أناب إلى الله مستغفرًا ... فصار له من أعز الخدم(١)

---

(١) « استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس » للحافظ ابن رجب ص ٨ طبع دار الفتح .